ثقافة وتحضّراً، أي الأكثر تمثّلاً ومشاكلة للتراث الغربي. وهنا خطورة هذه الاسطورة حين يصل الوضع ببعض المثقفين والساسة العرب الى احتذاء المقاربة الغربية للقضية الفلسطينية والعربية بعامة؛ هذه المقاربة التي تروي القصة وترى المصير انطلاقاً من أسطورة التوراة، وليس من التاريخ كما وقع فعلاً.

لقد قادت الصهيونية حملة تثقيف الى العالم قبل ان تكون هذه الصهيونية؛ أي حين لم تكن خرجت عن كونها رؤيا يهودية عنصرية. وحين بدأت هذه الرؤيا بتحقيق نفسها في التاريخ بالتحوّل الى صهيونية، كانت أسس كثيرة قد أُرسيت وبذور كثيرة قد بدأت تصحو من هجعتها، حتى اننا لنجد البعض وجد في اقتلاع الفلسطينيين من الأرض تصديقاً لرؤيا «أشعيا»، حتى بدون ان يكون هذا البعض قادراً على فك الخط من أي نوع كان. وكثيراً ما كنت حين أسأل عن مصادره، أواجه بجواب لا يتغيّر وهو: «ان هذا مكتوب في كتبهم» أي في التوراة اليهودية.

موضوعنا، هنا، هو هذه الارضية الثقافية التي تستخدمها الرأسمالية الغربية لتبرير كل أنواع البربرية الموجّهة ضد الانسان العربي؛ أي المفهوم التوراتي للتاريخ، وتاريخ منطقتنا بالذات، مع وعينا الكامل بأنّ هذا لا يمثّل الاّ جانباً من الصورة المركّبة: صورة المشروع الرأسمالي المنفلت باتجاه التهام الموارد والأسواق والبشر. قال دافيد بن ـ غوريون عن خطاب تدشين دولة اسرائيل، في ١٤ أيار (مايو) ١٩٤٨، «انه كان يفكّر، وهو يخطب، بالولايات المتحدة الاميركية في بداياتها، حين كانت تضمّ حفنة من الاراضي على ساحل المحيط الأطلسي، ثمّ قُدّر لها ان تتوسّع على طول، وعرض، القارة خلال قرن واحد»[١].

ليس هذا التماثل في بنية التفكير وليد المصادفة، بل وليد حركة استعمار واقعية واحدة، وكذلك هو أمر الاسطورة التوراتية، حين تصبح نغمة يعزفها الخطاب الغربي طوال المئة عام الأخيرة، ويؤثر بها في العقلية الغربية، فتمتد من لويد جورج البريطاني حتى جيمي كارتر الاميركي بالصيغة ذاتها تقريباً، أي مقاربة القضية السياسية الفلسطينية والدخول اليها عبر التوراة وتاريخها. ان في هذا الجو شيئاً جديراً بالاهتمام والمتابعة.

ثمّة ملحوظة للدكتور أنيس صايغ، ذكرها في مقدّمة دراسة «في الأدب الصهيوني» لغسان كنفاني. تقول الملحوظة «انه رغم تسخير الأدب الصهيوني للسياسة ولخدمة أغراض سياسية، وانه سخّر نفسه لخدمة هذه الاغراض الصهيونية بأبشع الوسائل، بالكذب والتمويه وقلب الحقائق، الاّ انه يجد صدى ودّياً واسعاً في العالم، ويجد الكثير من الترحيب والاعجاب. ولا يكاد يروّج رواجاً تجارياً ومعنوياً أدب سياسي واحد خارج البلد الذي يصدر فيه بمقدار رواج الأدب الصهيوني في بقاع العالم المختلفة...»[٢]. ولكن د. صايغ توقّف عند حدود هذه الملحوظة، ولم يعلّل ظاهرة الصدى الودّي والترحيب والرواج، ربما استناداً الى ان كل قارىء عربي يعرف التعليل الشائع والقائل بسيطرة الصهيونية على الأجهزة الاعلامية الغربية، وقدراتها المالية الضخمة، وضعف الوسائل العربية في المقابل. وهو تعليل لا يفسّر حقيقة السيطرة الفعلية ومكامنها الخفيّة، كما سنرى.

وكنا نتمنّى ان نجد شيئاً من التعليل في دراسة كنفاني المشار اليها؛ الاّ ان هذه الدراسة، على الرغم من اقترابها من تفجير القضية، وقفت دونها. فهو لاحظ انه «لن يتقيّد بتاريخ ولادة الحركة الصهيونية السياسية في أواخر القرن الماضي، كنقطة بدء لدراسة الأدب الصهيوني، بل سيمضي الى الوراء في تقصّي جذور الصهيونية في الأدب الى أبعد ما يستطيع»[٣]. ولاحظ، ببصيرة نافذة، ان